«كان يتَشَهَّدُ عند قَطْع رأسه، وفلجوا أخمص رِجليه بالسيف»

هكذا قُتِل الشهيد الثاني زين الدين الجُبَعي العاملي

وثيقة نادرة من القرن العاشر الهجري، تكشف -لأوّل مرة- تفاصيل بالغة الأهميّة، عن ملابسات مقتل فقيه الإسلام النَّوعي، الذي هو أحد القلائل من أعاظم الفقهاء، الشهيد الثاني زين الدين الجُبعي العاملي قدس سره (٩١١-٩٦٥ للهجرة). **والوثيقة صفحة من مخطوطة كتاب (الرحلة المدنيّة والروميّة) للشيخ قطب الدين النَهروالي (٩١٧ – ٩٩٠ للهجرة)، الذي لم يمنعه اختلافُه في المذهب عن الشهيد من الثناء على علمه وفضيلته التامّة.**

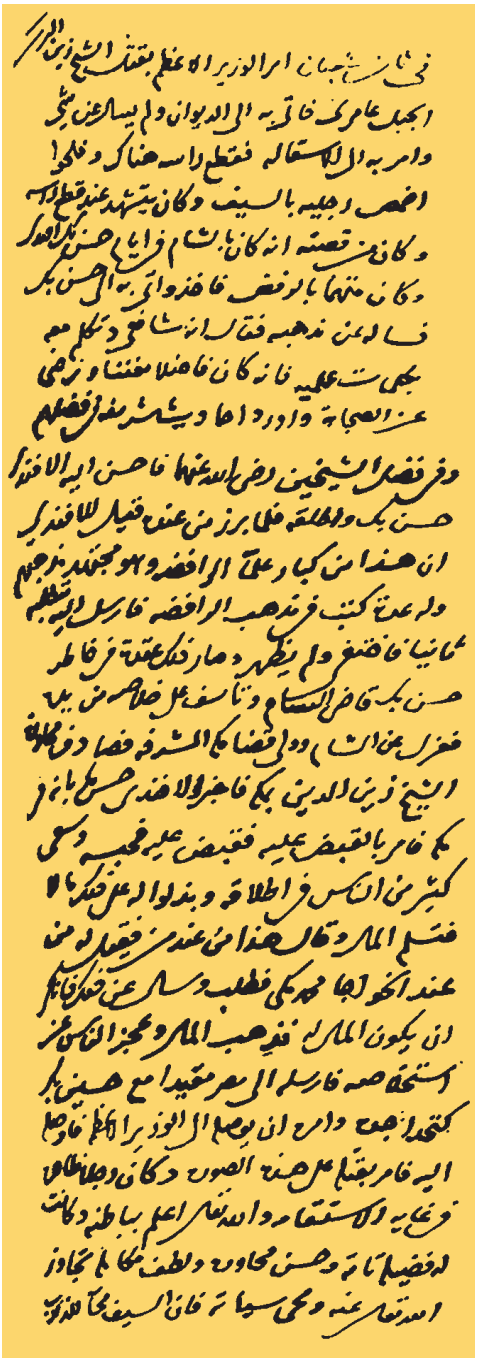

الشهيد الثاني في سطور

* الشيخ زين الدين بن نور الدين عليّ بن أحمد بن محمّد بن عليّ بن جمال الدين بن تقي بن صالح بن مشرف العاملي الشامي الطلوسي الجُبعي، المعروف بابن الحاجّة النحاريري، الشهير بالشهيد الثاني.

* نشأ الشهيد في بيت عريق معروف بالفضل، ذي جذور وسوابق علميّة: فكان أبوه من كبار أفاضل عصره، وكذلك جدّاه جمال الدين والتقي، وجدّه الأعلى الشيخ صالح من تلاميذ العلّامة. فكان ستّة من آبائه من الفضلاء المرموقين في «جبل عامل»، كما استمرّ أبناء الشهيد على هذا النهج. قال مؤلّف (الروضات): «ومن العجب أنّه كان بمنزلة النقطة المتوسّطة المحاطة بدائرة المعارف والعلوم، أو مركز تؤول نسبة واحدة من فضائل أرباب الفواضل على النهج المنظوم، حيث إنّ من آبائه الستة المذكورين كانوا من الفضلاء المشهورين وكذلك أبناؤه النبلاء. وكان البيت يُعرف بسلسلة الذهب».

صفاته وملامحُه: قال ابن العودي في رسالته: «كان ربعة من الرجال، معتدل القامة، وفي آخر عمره كان إلى السمن أميل، بوجه صبيح مدوّر، وشعر سبط يميل إلى الشقرة، أسود العينين والحاجبين، أبيض اللّون، عبل الذراعين والساقين. كأنّ أصابع يديه أقلام فضّة، إذا نظر الناظر في وجهه، وسمع لفظه العذب لم تسمح نفسه بمفارقته، وتسلّى عن كلّ شيء بمخاطبته، تمتلي العيون من مهابته وتبتهج القلوب لجلالته، وأيمُ الله إنّه فوق ما وصفت، وقد اشتمل على خصال حميدة أكثر ممّا ذكرت» (راجع «أعلام»، العدد الثاني من «شعائر»).

نص الوثيقة

في ثاني شعبان أمر الوزير الأعظم بقتل الشيخ زين الدين الجبل عاملي [عاملي]، فأُتي به إلى الديوان ولم يُسأل عن شيء، وأُمر به إلى الإسقالة [منصّة خشبيّة] فقُطع رأسه هناك، وفلجوا أخمص رجليه بالسيف، وكان يتشهّد عند قطع رأسه. وكان من قصّته أنّه كان بالشّام في أيام حسن بيك أفندي وكان متّهماً بالرّفض، فأُخذ وأُتي به إلى حسن بيك فسأله عن مذهبه فقال إنّه شافعي وتكلّم معه بكلمات علميّة، فإنّه كان فاضلاً متقناً وترضّى عن الصّحابة وأورد أحاديث شريفة في فضلهم وفي فضل الشّيخين رضي الله عنهما فأحسن إليه الأفندي حسن بيك وأطلقه.

فلمّا برز من عنده قيل للأفندي: إنّ هذا من كبار علماء الرافضة، وهو مجتهد مذهبهم، وله عدّة كتب في مذهب الرافضة؛ فأرسلَ إليه يطلبه ثانياً، فاختفى ولم يظهر. وصار ذلك عقدة في خاطر حسن بيك قاضي الشام وتأسّف على خلاصه من يده. فعُزل عن الشام ووُلّي قضاء مكّة المشرّفة، فصادف وجود الشيخ زين الدين بمكّة، فأُخبر الأفندي حسن بيك بأنّه في مكّة فأمر بالقبض عليه، فقُبض عليه فحبسه. وسعى كثير من الناس في إطلاقه وبذلوا له على ذلك مالاً فتسلّم المال، وقال: هذا من عند مَن؟ فقيل له: من عند الخواجا محمّد مكي. فطُلب وسُئل عن ذلك فأنكر أن يكون المال له، فذهب المال وعجز الناس عن استخلاصه. فأرسله إلى مصر مقيّداً مع حسين بيك كتخدا، وأمره أن يوصله إلى الوزير الأعظم فأوصله إليه، فأمر بقتله على هذه الصّورة. وكان رجلاً ظاهرُه في غاية الاستقامة والله تعالى أعلم بباطنه، وكانت له فضيلة تامّة وحُسن محاورة ولطف مكالمة، تجاوز الله تعالى عنه ومحا سيّئاته، فإن السّيف محّاء للذنوب.